المقـــدمـة

كانت الحرف والصنائع في المدن المغربية خلال العصر الوسيط الإسلامي نشاطا أساسيا بالنسبة للاقتصاد والمجتمع. فمن الناحية الاقتصادية رفعت التقنيات والمهارات الحرفية قيمة المواد الأولية بعد تحويلها إلى سلع وبضائع جاهزة لاستعمالات مختلفة، ووفرت موارد مالية هامة لأطراف متعددة.

ومن الناحية الاجتماعية انتمى الحرفيون إلى شرائح تنوعت أصول أفرادها واختلفت مستوياتهم المعيشية، التي تأسست على مداخيلهم من النشاط الحرفي، وهو ما يستدعي دراسة للمجتمع في فترة من الفترات الزمنية.

انطلاقا مما سبق ومن غيره، تبرز أهمية تناول موضوع «الحرف والصنائع بمدينة فاس وأدوارها الاقتصادية والاجتماعية خلال العصرين المريني والوطاسي» بالبحث والدراسة.

وتناوُل هذا الموضوع بالذات تحكمت فيه مجموعة من الدوافع تتحدد في:

- وجود مآثر معمارية شاهدة إلى اليوم بالمدينة على تقنيات ومهارات الصانعين في الفترة المدروسة.

- اطلاعي بـ «وكالة التخفيض من الكثافة وإنقاذ مدينة فاس» على العديد من الأبحاث والدراسات التاريخية والمجالية والتقنية والهندسية حول فاس.

- مشاركتي في الدراسات الميدانية التاريخية والتقنية حول المدينة، وكذا الإسهام مع مجموعة من الباحثين في إنجاز دراسة حول «الحرف والصناعات التقليدية بمدينة

فاس» بتعاون بين الوكالة ومنظمة اليونسكو[1].

- إنجازي لبحث يتعنون بـ«الحرف والصنائع بمدينة فاس خلال العصر الوسيط» تحت إشراف الدكتور مولاي هاشم العلوي القاسمي لنيل شهادة الدراسات العليا المعمقة.

كانت هذه الدواعي كافية لتشكيل رغبة ذاتية في إعداد دراسة تحاول جهد الإمكان الإلمام بموضوع الحرف والصنائع وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية.

وقد تراءت لديَّ - أمام ضغط تلكم الدوافع - في أفق بعيد أهدافا زادتني تشجيعا على إتمام هذا العمل وحبا في مساهمة علمية ترجو أن تجد قبولا وسعة صدر لدى من يطلع عليها، وتتلخص تلك الأهداف في:

- التعريف بالحرف والصناعات الفاسية في العصرين المريني والوطاسي، بذكر المواد المستخدمة فيها ووسائلها وأدواتها، وطبيعة وكميات منتوجاتها وأماكن تصنيعها وعرضها...

- تصنيف الحرف والصناعات اعتمادا على معايير الجهة المُمَوِّلة للنشاط، وطبيعة المواد الأولية المستخدمة فيه، وكذا الخدمات المستفادة منه.

- محاولة رصد التطور الذي شهدته تلك الحرف والصناعات ارتكازا على تحديد العوامل المتحكمة فيه، بقصد استجلاء مظاهر انعكاسات الأنشطة الحرفية على المستويين الاقتصادي والاجتماعي.

---

(١) تم ذلك الاطلاع وتلك المشاركة المذكوران أثناء عملي بالوكالة المشار إليها بين ستي ١٩٩٥ و٢٠٠٠.

- توطين ميداني للمعالم المعمارية في المدينة ذات الصلة بالموضوع، مدعّما بالصور والتصاميم والخرائط الملحقة[١].

- وغير خاف أن من ينظر إلى عنوان هذه الرسالة وطبيعة الموضوع المحال عليه، يجد بدا من أن يتّبع منهجا تاريخيا مدعّما بآليات استقراء الوثائق واستنطاقها وتأويلها وتحليلها واستخلاص الحقائق التاريخية منها.

ولما كان مجال البحث هو مدينة فاس، فإن ذلك يندرج في إطار كون المدن أو الأمصار موطنا نشيطا للأعمال ذات الطابع الحرفي والصناعي، حيث تنشأ فيها وتتطور عكس البوادي[٢]. لذلك فمدينة فاس المؤسسة منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وما تراكم فيها من خبرات وتجارب ذات الصلة بالحرف والصنائع ،تعد من المدن الجديرة بالاهتمام والدراسة.

أما زمن الموضوع المزمع دراسته، فيمتد على ما يقرب من ثلاثة قرون بدءا بالعقود الثلاثة الأخيرة من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وانتهاء بحوالي منتصف القرن العاشر الهجري / السادس من عشر الميلادي، وهذه المدة الزمنية تتيح البحث في موضوع «الحرف والصنائع» واستجلاء أدوارها الاقتصادية والاجتماعية.

ويستدعي التقديم لهذا البحث أيضا التعريف بمفهومي الحرفة و الصناعة اللتان كانتا تضمان أعمال الفلاحة و التجارة و الغناء و الأدب و الشعر و الكتابة

---

(١) معظم الوثائق الملحقة بالبحث تزودت بها من وكالة التخفيض من الكثافة وإنقاذ مدينة فاس.

(٢) ابن خلدون، عبدالرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م،ج١،ص:٤٣٠ .

والتوثيق[١]. وقد أورد الخزاحي التلمساني حين تعريفه للحرفة بأنها مشتقة من حَرف يحرف، أي كسب و طلب و احتال، و الاحتراف هو الاكتساب، و المحترف هو الصانع، و أضاف أن حرفة الرجل هي صنعته، و الصانع هو عامل الشيء، كما اعتبر بأن المهارة و الإبداع من ميزات العمل الحرفي. أما الصناعة فقال عنها أنها حرفة الصانع، و عمله هو الصنعة، و صنع الشيء أي جعله مصنوعا و صنيعا، و الرجل الصنيع هو الحاذق[٢]. و بذلك فالحرفة و الصناعة تدلان معا على العمل الذي يقوم به الشخص طلبا للكسب و المعاش، مستخدما فيه المهارة و الإبداع و الحذق، و هو مقتصر على تحويل المواد الأولية إلى منتوجات مصنعة و تقديم خدمات الحرفيين إلى غيرهم.

وإني أميل في هذا البحث إلى توظيف مصطلح الصناعة الحائل على العمل المحول للمواد الأولية، و مصطلح الحرفة على الخدمات المقدمة من قبل الحرفي، فتحويل الحداد مثلا لمادة الحديد من الأنسب أن ينعت بالصناعة، و إن كان من الممكن إطلاق لفظ الحرفة عليه، بينما يتلاءم عمل الحمال مع لفظ الحرفة فحسب.

وقد توفرت بين يديَّ مجموعة من المصادر والمراجع المتنوعة التي ساعدت على تناول تلك المباحث المذكورة في الخطة، وأعرضها مقسمة حسب النوع مبرزا أهميتها

---

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ج١،ص:٤٣٢.

(٢) علي بن محمد الخزاعي التلمساني، أبو الحسن : تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ، من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م،ص ص :٧٩٣- ٧٩٤ .

في معالجة قضايا البحث:

- كتب التاريخ العام والمونوغرافيات: من بينها مؤلفات. «العبر» لابن خلدون، و«المسند الصحيح» لابن مرزوق و«روضة النسرين» لابن الأحمر، وبعض كتب ابن الخطيب، مثل«النفاضة» و«اللمحة» و«المعيار»، وكتاب «الأنيس المطرب» لابن أبي زرع و«جنى زهرة الآس» للجزنائي.

وتكمن أهمية هذا الصنف من الكتب في التعرف على منجزات سلاطين الدولة الصناعية في الزمن المدروس، والاستفادة من تركيز بعض الكتب على ما عرفته معالم المدينة من أعمال حرفية كما هو الشأن بالنسبة لجامعي القرويين والأندلس، فضلا عن الاستفادة من سرد ما عرفته بلاد المغرب ومدينة فاس من أحداث تاريخية متعاقبة ومتداخلة.

- كتب الجغرافيا والرحلات : من بينها «وصف إفريقيا» للوزان و«فيض العباب» للنميري و«تحفة النظار» لابن بطوطة[1]. وقد استفدت في البحث من هذه الكتب بوصف الوزان الدقيق لأحياء وأزقة وشوارع فاس، وذكر توزيع أنشطتها الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، ووصف النميري لمظاهر استعراض أبي عنان للجند، والمنجزات المعمارية في عهد هذا السلطان خاصة المدرسة والزاوية المتوكليتين، وما احتضنتاه من أنشطة ذات علاقة بالحرف. ثم رصد ابن بطوطة للعلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي ربطت حاضرة فاس مع بلاد السودان. كل ذلك وغيره ساهم في توضيح الصورة عن وضعية النشاط الحرفي بفاس المرينية الوطاسية.

(١) ترتيب هذه المؤلفات الثلاثة يرتهن إلى أهمية كل منها بالنسبة للموضوع.

- كتب الفهارس والتراجم والبيوتات: من بينها «الفهرس» و«الروض الهتون» لابن غازي و«بيوتات فاس الكبرى» و«النثير» لابن الأحمر[1]. و«الإحاطة» لابن الخطيب و«الجذوة» و«الدرة» لابن القاضي... أهمية هذه الكتابات مثلتها علاقات المترجم لهم بالنشاط الحرفي الفاسي سواء من حيث عملهم فيه أو اقتنائهم لمنتجاته وتلقيهم لخدماته، أو بآرائهم ومواقفهم وأحكامهم وأقوالهم عن الحرف والحرفيين، و ذلك ما أسهم في جمع معطيات حول الحرف والصناعات أفاد تحليلها وتدارسها في استخلاص آثارها على الاقتصاد والمجتمع.

- كتب النوازل والفتاوى الفقهية: أبرزها كتاب «المعيار» للونشريسي، تنضاف إليه تآليف ابن هلال وابن الرامي وغيرهما. ومما تضمّنه هذا الصنف من المصادر قضايا خاصة بالحرف، سُئِل فيها الفقهاء فأبدوا وجهات نظرهم عارضين في كثير من الحالات آراء من سبقهم وعاصرهم حول القضايا المعروضة عليهم، مما أتاح الاطلاع على مادة مصدرية مهمة تفيد الموضوع.

وأصناف المصادر المذكورة أعلاه لم تغنني عن الاستعانة بمحتويات المراجع التي يمكن تلخيص أهميتها في:

- نقل العديد من المراجع للمادة التاريخية من المصادر، مما جعلني أرجع إلى هذه المراجع حين كان يتعذر عليَّ العودة إلى أصولها، أو ابتغاء تأكيد ما ورد فيها من معلومات.

- تميز الأعمال التي أنجزها باحثون ودارسون كالمنوني خاصة في كتابه «ورقات» وبنعبد الله في كتابيه «معطيات عن الحضارة المغربية» و«العلوم الكونية

(١) شاركه في تأليف «البيوتات» مؤلفين آخرين.

والتجريبية في المغرب» وعبد الهادي التازي في «جامع القرويين» و«التاريخ الدبلوماسي»، إذ درسوا المادة المصدرية وقارنوا فيما بينها واستخلصوا استنتاجات هامة تنير طريق تناول الحرف والصناعات بالبحث.

- أهمية بعض الكتابات الأجنبية التي ركزت على دراسة مدينة فاس وبلاد المغرب جامعة بين المعطيات النظرية والتجسيد الميداني لها، ومن بين ما يمكن الاستدلال به هنا كتابي لوتورنو «فاس قبل الحماية» و«فاس في عصر بني مرين» وكتابي ماسينيون «المغرب في السنوات الأولى للقرن ١٦م» و«بحث ميداني حول الصناعة التقليدية والتجارية بفاس سنتي ١٩٢٣م و١٩٢٤م»، وعمل أنجزه بيل معنون بـ«الكتابات في مدينة فاس».

- استفادة البحث من الدراسات حول الأنشطة الحرفية بأماكن وفترات زمنية غير مذكورة في عنوان بحثي، كان لها فضل بعد مقابلة ومقارنة نصوصها واستثمارها حيث تكون المواد الأولية والتقنيات والأدوات والمصنوعات متشابهة ومتقاربة مع ما أدرس في الموضوع. ومن الكتب التي كان لها مثل هذه الوظيفة مؤلف «الحرف والصناعات بالحجاز في عصر الرسول ﷺ» لعبد العزيز العمري، وكتاب «وصف مصر» لعلماء الحملة الفرنسية في بداية القرن ١٩م، علاوة على الأبحاث والدراسات الجامعية المحلية مثل الرسالتين الجامعيتين «الحرف وعلاقتها بالمخزن» في القرن ١٩م لفاطمة العيساوي، و«الحرف والحرفيون» في نفس القرن لأحمد أديب.

وتبقى المخلفات المعمارية المنتسبة للفترة والمكان المعلومين في البحث مرجعا له أهميته أيضا إلى جانب ما هو مكتوب.

واعتمدت محاور البحث وقضاياه على خطة تتكون من مقدمة وأبواب ثلاثة

وخاتمة.

المقدمة: تعرضت فيها لأهمية الموضوع التي تبرر دراسته، محددا أهدافه وطريقة البحث فيه، وخطته، مبينا مدى استفادتي من المصادر والمراجع المعتمدة في معالجته.

الباب الأول: الحرف والصناعات المرتبطة بالدولة.

الفصل الأول: الحرف والصناعات المخزنية:

درست فيه الصناعات العسكرية، وسك النقود والأشغال العامة والأعمال العلمية والفنية.

الفصل الثاني: الحرف والصناعات الوقفية:

عالجت فيه أعمال البناء والزخرفة، والتجهيزات والخدمات.

الباب الثاني: الحرف والصناعات الخاصة.

الفصل الأول: الحرف والصناعات الضرورية البسيطة:

استعرضت فيه الحرف الفلاحية، حرف الغذاء، صناعة النسيج والملبوسات، حرف الخدمات، ثم أعمال البناء والفخار وتصنيع الخشب والجلد.

الفصل الثاني: الحرف والصناعات الكمالية المركبة:

قسمته إلى مباحث: زخرفة المباني والفخار، صناعة النسيج والملبوسات والجلد، صناعة المعادن والأسلحة، ثم الصناعات الشريفة.

obeikandl.com

الباب الثالث: الأدوار الاقتصادية والاجتماعية للحرف والصنائع

الفصل الأول: الأدوار الاقتصادية للحرف والصنائع :

بينت فيه الدور المالي في المبحث الأول والدورين والفلاحي التجاري في المبحث الثاني.

الفصل الثاني: الأدوار الاجتماعية للحرف والصنائع

حاولت فيه كشف «نظام الطوائف الحرفية وبعده الاجتماعي» و«الخدمات الاجتماعية العامة للحرفيين».

الخاتمة: استخلصت فيها النتائج التي توصَّلت إليها دراسة الموضوع.

وطبيعي أن تعترض طريق البحث في الموضوع مجموعة من العوائق أجملها فيما يلي:

- قلة المعلومات المصدرية المكتوبة عن الفترة الوطاسية مقارنة مع المرينية، مما طرح غموضا اكتنف وضعية الحرف والصناعات في هذه الفترة، وذلك بفعل الاضطرابات السياسية التي عرفتها مدينة فاس وبلاد المغرب خلالها، وقصر مدة الحكم، حاولت التغلب عليها بالقياس على التطورات التاريخية المسجلة قبلها واستغلال ما ورد من وصف للمدينة في إحدى مراحلها من طرف بعض المؤلفين أهمهم الوزان.

- تناول المصادر المكتوبة الأحداث والوقائع بهدف التأريخ لما هو عام أو سياسي، وعدم إفصاحها عما يفيد الموضوع إلا عرضا، مما طرح مشكلة قلة المعطيات

البيبليوغرافية، وهو ما حتم عليَّ اللجوء إلى تنويع المصادر المعتمدة لتشمل كتب النوازل والتراجم وغيرها، لكن ذلك لم يحد من المشكلة المطروحة بشكل ملموس، نظرا لعدم ذكر مكان صدور النازلة وإغفال تاريخها أحيانا، وانتقال المترجم لهم بين فاس والمدن والمناطق الأخرى، مما طرح صعوبة حسم إحالة الممارسات الحرفية لمدينة فاس.

وبناء على ما سبق، تمت المقارنة بين المعلومات الواردة في المصادر وبينها وبين التي نقلتها بعض المراجع التي تعذر عليَّ الحصول عليها قصد جمع المعطيات التي تعد أساسا في معالجة قضايا ومحاور البحث.

– إن كثرة الحرف والصنائع المدروسة، وتعدد أنواعها واختلاف الجهات التي مارستها، وتداخل أعمالها، طرح مشكل تصنيفها في إطار الأهداف المحددة لهذا البحث، وقد حاولت في البداية أن أصنف الحرف والصنائع على أساس نوع المواد الأولية المستخدمة فيها وطبيعة الخدمات المقدمة من خلالها، لكنني كنت مضطرا لإدراج معيار آخر هو الجهات المموِّلة للعمل الحرفي بالشكل الذي يساعد في التمييز بين منجزات كل جهة، وربط ذلك بإمكانياتها واستنتاج علاقاتها مع الجهات الأخرى.

– إن المصادر المادية التي تجسدها الآثار والمخلفات المعمارية المرينية والوطاسية، أفادت الموضوع أيضا بالعودة إليها لتوضيح وتقريب القارئ عند تناول حرفة معينة أو أحد انعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية. لكن التغيير الذي يطرأ على تلك الآثار والمخلفات باختفاء بعض معالمها كليا أو جزئيا، وما عرفته من أعمال تجديدها وإصلاحها منذ زمن طويل، طرح صعوبة في نسبة منتوج حرفي معين أو المعلمة التي احتضنته إلى المرحلة الزمنية المدروسة، والاستعانة بآراء الباحثين والدارسين

المختصين كانت مفيدة في تجاوز نسبي لهذه الصعوبة.

وفي الأخير، أتمنى – من الله العلي القدير– أن يكون قد وفقني في إنجاز هذا البحث، ويكون مضمونه إضافة تفيد القراء والباحثين.

obeikandl.com